سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

الكاتب، الناشط، المؤسسة

ذكريات الأدب والحبّ: ملاحظات نقدية

صدوق نور الدين

الإشكاليات الثلاث

١ ـ إشكالية القراءة. إنّ أيّ تصوّر ممكن حول **ذكريات الأدب والحبّ** للراحل سهيل إدريس لا يمكن أن يعبِّر عن رؤيةٍ جامعةٍ حول الشخصية بانتفاء الاستكمالِ المتمثّلِ في جزءٍ إبداعيّ ثانٍ. فأفقُ التلقّي والتأويل ينبني على التوقّع، ولاسيما أنّ الإثبات جزءٌ أولُ يؤجّل على مستوى الفهم وترتيب المعنى علاقةَ السابق باللاحق... هذا إذا ما ألمحنا إلى طبيعة التقاطع بين منجزيْن: منجز **الحيّ اللاتيني** (المنصَّص «رواية») و**ذكريات الأدب والحبّ** (التي تُقصي التجنيسَ الدقيق: «سيرة ذاتية»). وبالانبناء على السابق، فإنّ القراءة الممكنة المستوفيةَ شرطَها الفكري والإنساني لن تحظَ بمواصفاتِ الدقة ما لم يتمّ نشرُ الجزء الثاني من هذه الذكريات.

٢ ـ إشكالية التجنيس. إنّ السؤال الذي يثور بخصوص **ذكريات الأدب والحبّ** هو: لماذا سُمّيتْ ذكريات، لا سيرة ذاتية، أو مذكّرات؟ لعلّ استقراءَ تاريخيةِ السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث يدعو إلى تمثّل حصيلة الآثار المدوّنة في هذا السياق، والتي تحقّقَ تلقّيها وفق هذا المستوى من دون أن يكون مبدعوها أقدموا على تجنيسها: **الأيام، حياتي، أنا، تربية سلامة موسى**،... فإقصاءُ قاعدة التجنيس ناتجٌ أساسًا من عوامل:

ـ نفسية. وهنا يبرز عاملُ الخوف من الإقدام على نشر «أسرار» العائلة والذات.

ـ اجتماعية. وترتبط بالتقاليد والعادات الموروثة، وتقتضي التكتّمَ وعدمَ التداول.

ـ أدبية/فكرية. وتتّصل بالنوع الأدبي، حيث انحسارُ تداولِ جنس السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث.

قد تكون العواملُ السابقة هي المرجعيةَ المتحكّمة في تغييب تحديد كتاب إدريس بـ «السيرة الذاتية.» لكنْ ما الذي يمكن قولُه بالنسبة إلى تحديد «الذكريات»؟

دأب بعضُ المبدعين على استخدام تحديد «مذكّرات» بدل «سيرة ذاتية.» واللافت أنّ هناك تقاطعًا بين النوعين؛ على أنّ الاختلاف يتجسّد في كون الأولى لا ترتبط سوى بالتأريخ للذات، في حين أنّ الثانية تطول وقائعَ أخرى مما له «قرابةُ تجاورٍ» مع الذات. فاختيارُ المذكّرات قصديٌّ مادام يفسح المجالَ لحرية الإضافة والتوسيع.[١] كما أنّ ثمة مَن قَرَنَ المذكّرات بالاعترافات، وفي ذلك قيس على **اعترافات** القدّيس أغسطين وجان جاك روسّو.[٢]

إنّ الذكريات في العمق قريبةٌ من المذكّرات والاعترافات، وهي بالتالي تفسح لحريةِ احتضانِ ما هو قريبٌ من الذات. وأرى أنّ اختيار المرحوم سهيل إدريس يندرج في هذا الجانب.

٣ ـ إشكالية الجمع بين الأدب والحبّ. يَحْصر المؤلّفُ سيرتَه في موضوعتين: الأدب والحبّ. الأول يرتبط بالفكري المعرفي، والثاني يرتبط بالعاطفي الذي لا تخلو منه سيرةٌ. فالحصر تحديدٌ وتوجيهٌ للقارئ المتلقّي، ومن ثم تحكّمٌ في المادة المراد التعبير عنها. لذلك يحقّ تقسيم **ذكريات الأدب والحبّ** إلى وحدتين: وحدة النشأة وتكوين الشخصية (الأدب)، ووحدة العاطفي (مجسّدًا في الحبّ). واللافت أنّ الوحدتين تتكاملان، وتتقاطعان على غير مستوى، باعتبار أنّ مقصد إنتاج المعنى يرتبط: ١ ـ بشخصية معروفة ومتداولة. ٢ ـ بشخصية تتغيّا التأريخَ لقيمةِ أناها. ٣ ـ بتجسيد علاقاتها الأدبية والعاطفية.

على أنّ إشكالية الجمع بين الأدب والحبّ لا تنحصر في دائرة مغلقة. **فالمؤلّف يضفي قوةَ الصدق على الذكريات باعتماد الضمّ النصّي ممثّلاً في أدب الرسائل: رسائلِ أنور المعدّاوي وسعيد تقيّ الدين إليه.** فهذا الضمّ يَكشف صورةَ الأنا

١ ـ جورج ماي، **السيرة الذاتية**، ترجمة محمد القاضي ومحمد صولة (تونس)، ص١٢٧.

٢ ـ نفسه، ص ١٢٨.

وتاريخيتها، مثلما يضيء جوانبَ تتحقّق باعتماد رؤية الآخر إلى الذات. والملاحَظ أنّ رسائلَ أنور وسعيد تَردُ بنصّها، فيما تُختصر وتلخَّص رسائلُ سهيل إليهما. إضافةً إلى أنّ إدريس يعتمد التعليقَ على المحتوى المتضمَّن في الرسائل. وهو لا يكتفي بالضمّ الرسائلي، وإنما يعود إلى إثبات العتبات مجسّدةً في نواة التقديم المعتمد للمجاميع القصصية الأولى (مقدّمة مجموعة **أقاصيص أولى**، ص ١٢٤). ويَعْضد التقديمَ بإدراج نوعية التلقّي.

تجسيدات الأنا

تتمثّل الأنا في **ذكريات الأدب والحبّ** من خلال مستوياتٍ تَعكس تدرّجَ تكوين الشخصية معرفيّاً وفكريّاً. ونقف في هذه المستويات على شخصية الطالب، وشخصية الصحافي، وشخصية الأديب.

تَبْرز **شخصيةُ الطالب** في الحرص على التحصيل. واللافتُ تنوّعُ هذا التحصيل: فلقد جَمَعَ بين الديني الشرعي، والأدبي. على أنّ ميل الشخصية تجسّدَ في الأدبي، ولذلك اتّصفتْ بالروح التمردية على اللباس وعلى المنهجية التي تُقدَّم من خلالها الدروسُ (وهنا نتذكّر ما كان أقدم عليه طه حسين في **الأيام**): «أذكرُ أنّي أنهيتُ عامَ ١٩٤١ دراستي في الكلّية الشرعية في بيروت وعزمتُ على السفر إلى القاهرة للالتحاق بكليّة الآداب في الجامعة المصرية...» (ص ٥)؛ «وكان مدرّس الحديث، الشيخ محمد العربي العزوزي، مضطربَ المنهج، غائمَ التفكير، فلم يستطع أن يحبِّبَ إلينا الحديثَ النبويّ الذي ظلّ الشكُّ حول صحيحه وموضوعه يدور في عقولنا...» (ص ٤١).

ولقد طمح الطالبُ إلى أن يصبح كاتبًا، فانخرط في الاهتمام بالآداب العربية والفرنسية كتابةً وترجمة. على أنّ توسيع دائرة الطموح جسّدتْه الرغبةُ في تأسيس مجلة الآداب عام ١٩٥٣، ملتزمةً ومفتوحةً على عموم الأدباء والكتّاب العرب: «وكان أن أَقسمتُ أن أُصدر في المستقبل، بعد أن أَفرغَ من التخصّص، مجلةً أَنشر فيها ما أَنتجه وينتجه الأدباءُ العرب الذين يَحْرمهم التزمّتُ الزيّاتي [نسبةً إلى أحمد حسن الزيّات ـ الآداب] تفتُّحَ براعم مواهبهم على صفحات مجلته» (ص ٤٦). وعليه، فإنّ ما يَسِمُ شخصيةَ الطالب هو تنوعُ ثقافته، وانخراطُه المبكّر في الكتابة والترجمة، وطموحُه إلى التفرّد.

أما **شخصية الصحافي**، فنتبيّنها انطلاقًا من عمل إدريس في مجلة **الصيّاد**، حيث تحقَّقَ لديه تسييرُ ما يكاد يُعَدُّ قَسَمًا ثقافيّاً. وهذه العلاقة بالصحافة دفعتْه إلى تمتين مكانته الثقافية، وإلى خلق علاقات مع كتّابٍ وأدباء سيتمّ لاحقًا احتضانُهم في الآداب، وإلى إعطائه فرصةً لإظهار قدراته الأدبية بنشر نصوص إبداعية من تأليفه. وهذه الممارسة الابتدائية أهّلتْه لتحمّل المسؤولية وترسيخ الكفاءة: «والحق أني كنتُ قد ثبّتُّ موقعي في المجلة، وكان صاحبُها قد بدأ يعتمد عليَّ في عدد من أبوابها، ويكلّفني كتابةَ بعض المقالات التي لا يجد الوقتَ لكتابتها» (ص ٦٣)؛ «وفي مكتب **الصيّاد**، تعرّفتُ إلى عدد من الكتّاب والأدباء الذين يتعاونون مع صاحب المجلة، وأجد منهم التشجيعَ والرضى. وكان فيهم خليل تقيّ الدين، وتوفيق يوسف عوّاد، وعبد السلام العجيلي، وشكيب الجابري، وسواهم ممن أَسهموا بعد ذلك في الآداب...» (ص ٦٦). وعليه، فقد **دلّت شخصيةُ الصحافي على ممارسةٍ جديدةٍ في حياة المؤلّف، وتمثّلٍ للمسؤولية وإدارة العمل، وتأكيدٍ للكفاءة الإبداعية.**

أما **شخصية الأديب** فقد تولّدتْ من الارتباط بالصحافة. ويمكن استجلاءُ هذه الشخصية من خلال علاقتها بالكتابة، وبدايات حياة النشر. ولقد انبثقتْ نواةُ العلاقة بالكتابة من خلال جنس القصة القصيرة، ولاحقًا الرواية. وفَسَحَ عملُ إدريس بالصحافة إمكاناتٍ لنشر قصصه الأولى في نهاية الأربعينيات. وحتى يفيها المؤلّفُ حقَّها، فقد أَورد العتباتِ الخاصةَ بمجاميعه الأولى، إضافةً إلى النقود التي أُفردتْ لتجربته. كما حرص على تأكيد قيمة النصّ وأهميته من خلال المنبر الذي نُشر فيه («**الرسالة** /مصر»)، وهو تأكيدٌ غايتُه بيانُ مكانة الكاتب في المحفل الإبداعي الذي مَثّلَ المرحلةَ.

وأما بخصوص بدايات حياة الناشر سهيل إدريس، فنقف عليها في تأسيس مجلة الآداب (١٩٥٣) منبرًا للعروبة والالتزام بقضايا الوطن والأمة العربية، وحلقةً احتضنت الأدباءَ والمثقفين العربَ من أقطارٍ وبلدانٍ عربيةٍ مختلفة.

الختام

تبقى **ذكريات الأدب والحب** صورةً عن اسم علمٍ أديبٍ ومثقفٍ ومترجمٍ وناشرٍ فاعلٍ منتجٍ، خلّفتْ إسهاماتُه ومُنجزاتُه آثارًا دالةً على مستوى العالم العربي برمّته. وبذلك، فإنّ هذه **الذكريات** تضيء جوانبَ معتمةً من حياة الذات، أدبًا وعشقًا للحياة، وتجلو مراحلَ من الحياة الفكرية والأدبية العربية.

الدار البيضاء